إنطلق من الشعور بالامتلاك

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنوده الثالث

لقد جئت الى العالم بلا شك فقيرا مثلى , لا تملك فيه شيئا عريانا خرجت من بطن أمك , لا تملك الأقمطة التى قمطوك بها , و لا الفراش الذى أضجعوك عليه , و كل ما (امتلكته) فى العالم بعد ذلك لم يكن فى الواقع الا عطية من الله . لم يكن ملكك و انما أمانة وضعها الله فى يدك لفترة محدودة هى فترة العمر , و عندما تنقضى حياتك على الأرض ستخرج منها فقيرا كما أتيت , و عريانا كما ولدت . أما قنية العالم التى ادعيت ملكيتها عندما كنت على الأرض و التى تركتها رغما عنك , فسيدعى ملكيتها غيرك , و ينتقل من الأرض ليدعى ملكيتها ثالث , و هكذا دواليك ...

انك لا تملك شيئا اذن , حتى ذاتك . لم يكن لك ذات من قبل اذ لم يكن لك كيان أو وجود , كنت عدما . ثم خلق الله ذاتك . و عندما سقطت و أصبحت هذه الذات ملكا للموت و الهلاك , عاد الله و اشتراها بدمه و افتداها لنفسه . أنت اذن من كل ناحية لا تملك شيئا حتى ذاتك , لذلك فالذى يخطئ الى ذاته يخطئ الى الله نفسه , لأنه يفسد نفسا ملكا لله , و يفسد جسدا سر الله بعد ان امتلكه أن يجعله هيكلا لروحه القدوس . و بالمثل من يخطئ الى الآخرين , فانه مخطئ ضد الله نفسه عن طريق مباشر و غير مباشر . لقد أخطأ داود ضد أوريا الحثى و زوجته و مع ذلك قال لله " لك وحدك أخطأت " و ليس السبب فى ذلك مخالفته لله فحسب , و انما خطيئته أيضا ضد كائنين هما ملك لله .

ان شعرت بهذا يا أخى الحبيب أدركت خطورة الخطية فى وضعها الدقيق , انك لا تملك ذاتك حتى تتصرف فيها تصرف الملاك فى أملاكهم .

أما من جهة المقتنيات فقد شرحنا كيف أنها جميعا ليست ملكك و انما هى عطية من الله . أنت مجرد انسان استؤمن عليها ليدبرها بأمانة كما يليق بوكيل صالح . و هذا التدبير سيسألك الله عنه عندما يقول أعطنى حساب وكالتك (لو 16 : 2) . من أجل هذا نجد ملكا غنيا جدا كداود يرى الأمور على حقيقتها فيقول " أما أنا فمسكين و فقير " (مز 69) لم يكن فقيرا حسب العرف البشرى الخاطئ , و لكنه حقا لا يملك شيئا بحسب النظرة الروحية السليمة . و من أجل هذا أيضا كنا نجد

الآباء القديسين ينذرون الفقر الاختيارى , و ينظرون اليه كأحد الأعمدة التى تقوم عليها حياتهم الرهبانية .

و بهذا يمكنك أن تفهم الصدقة بمعناها الصحيح , انك لا تعطى من مالك شيئا , و انما أنت تعطى لخليقة الله من مال الله . الأمر اذن لا يدعو الى البر الذاتى أو الى الفخر , و لا يدعو أيضا أن تفكر فى الابتعاد عن مدح الناس لك , بأن تمدح نفسك بالتصدق تحت امضاء " فاعل خير " أعجبنى متبرع قرأت امضاءه فاذا هو : " فاعل شر يرجو الصلاة من أجله " .

ان الكائن الوحيد الذى يتصدق من ماله على الناس هو الله .

و لست أحب أن أسمى الصدقة فضيلة , حيث أنها ليست فضلا أو تفضلا من المتصدق . و هو لا يعدو أن يكون كما قلنا , موصلا لنعمة الله الى الآخرين , و ما يقال عن الصدقة يقال عن باقى الأعمال الحسنة التى لا يمكن أن تعتبر فضلا من أحد .

يلحق بالصدقة عنصر آخر و هو الشكر عليها , كيف تقبل يا أخى أن يشكرك الناس على شئ لم تدفعه من عندك , ان كان المال مال الله , فكيف تشكر أنت عليه , و كيف ترضى بقبول هذا الشكر ؟ اعط مجدا لله , و توار ليظهر هو , فهو الذى عمل العمل كله .

ان الشعور بالامتلاك قيد يقيد روحك , و يشعرك بما ليس فيك حقيقة , فاهرب منه ليس انكارا لذاتك , و انما اعترافا بحقيقتك و ليكن الله معك .